(البحوث والدراسات)

مراتب الناس في المجتمع الإسلامي

د. عبد الكريم اليافي(*)

لكلّ حضارة إنسانية توجيهات عامة نحو تنظيم مراتب الناس في المجتمع. ولابدّ للمرء في كل مجتمع حين يلتقي أصناف مواطنيه ومعاصريه من أن يشعر بشيءٍ من المسافة بينه وبين الآخر قربًا أو بعدًا، وعلوًّا أو خفضًا. ومن المناسب هنا أن نشرح التوجيهات العامّة التي يسترشد بها المسلم في مجتمعه الإسلامي.

يأتي في طليعة هذه المراتب العلم. لما جاء الإسلام رفع العلم إلى أرفع مرتبة. جاء في القرآن الكريم: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩]. وجاء في القرآن الكريم أيضًا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة: ١١]. جاء في كتاب الإحياء للغزالي (ج١، ص٥) قول ابن عباس رضي الله عنهما: «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمئة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمئة عام». نحن نعلم أن هذا تمثيل تقريبيّ لبيان علوّ مرتبة العلماء بالنسبة إلى الناس. وجاء في الحديث الشريف: «العلماء ورثة الأنبياء». ومن المعلوم أنه لا رتبة فوق النبوّة في الإسلام ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

جاء في الحديث الشريف أيضًا: «فضل العالم على العابد كفضلي أنا على أدناكم. إنّ الله ﷻ وملائكته وأهل السموات والأرضين، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلّم الناس الخير». قوله أدناكم يريد صحبه. وقد شُبِّهوا بالنجوم في حديث شريف: «أصحابي كالنجوم...» يصلّون (أي يستغفرون) ويدعون لهم لأن فضل علمهم وعملهم وإرشادهم سببٌ لانتظام أحوال العالم. وذِكْرُ النملة والحوت بعد ذكر الثقلين تتميم لجميع أنواع الحيوان. فنفع العالم يتجاوز نفع مجتمعه إلى الخلائق كلها حتى النملة. وفي التعبير العصري الحديث نقول: ينبغي أن يتمّ توازن حيويّ على الأرض بفضل علم العلماء، وألاّ يقع فيها تلوُّث ولا إجحاف، لأن العلم في التراث الإسلاميّ ينبغي أن يقترن بالعمل. وهما مسوسان بالخير العامّ ومسيّران نحوه. جاء في كتاب الإحياء للغزالي قول بعضهم «العلماء سُرُجُ الأزمنة. كلّ واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره».

نحبّ الآن أن نستفيض في بيان منزلة العلم في الإسلام ونذكّر بها، لأن ذلك متداول ومتعارف في الكتب، لنتبيّن آثار مكانة العلم عند الخلفاء والملوك.

يقول أبو الأسود الدؤلي: «ليس شيء أعزَّ من العلم. الملوك حكام على الناس، والعلماء حكّام على الملوك». (إحياء ج١ ص٧).

ويُذكر أن هارون الرشيد في إحدى حججه مرّ بالمدينة، موطن الإمام مالك بن أنس، وعلم بمكانة هذا العالم، فقصد إلى منزله تكريمًا له وإقرارًا بفضله. ولم ينهض الإمام مالك بنفسه إلى مقابلته.

وجاء في «تاريخ مدينة السلام» في حديث حسن الأزْدي قال: سمعت عليّ بن المديني يقول: سمعت أبا معاوية يقول، أكلت مع هارون الرشيد طعامًا يومًا من الأيام، فصبّ علي يديّ رجل لا أعرفه. فقال هارون الرشيد يا أبا معاوية! تدري من يصبّ على يدك؟ فقلت: لا. قال: أنا. قلت: أنت يا أمير المؤمنين! قال: نعم، إجلالاً للعلم. (الجزء ١٦، الطبعة الأولى، ص ١٢).

ثم إن العلم الرفيع المكانة ليس مقصورًا على العلم الدينيّ وحده. بل يشمل جميع العلوم التي تقصد إلى خير المجتمع. يُروى أن الخليفة المعتضد كان مع ثابت بن قرّة الحرّاني في بستان له، ويده على يد ثابت. فانتزع يده بغتة من يد ثابت ففزع من ذلك. فقال له المعتضد: يا ثابت! أخطأتُ حين وضعتُ يدي على يدك وسهوت. فإنّ العلم يعلو ولا يُعلى عليه.

وقد فرّق الصوفي الشهير ابن عربي في العلوّ نسبتين: علو مكان وعلو مكانة. فعلوّ المكان يستند إلى العمل. وعلو المكانة يستند إلى العلم. ولا شك أن الجمع بين علوّ المكان بالعمل وعلو المكانة بالعلم معًا شأوٌ قلّما يُدرَك.

وقد تصوّر المفكرون المسلمون نظامًا للمدينة الفاضلة وللأمة الفاضلة وللمعمورة الفاضلة تصوّرًا أقرب ما يكون من اعتبارات المذهب العضوي في علم الاجتماع، بحيث أوكلوا رئاسة المجتمع إلى نبيّ أو فيلسوف حكيم. والفيلسوف الحكيم هنا معناه العالم، كما نجد هذا عند الفيلسوف أبي نصر الفارابي، وربما كان متأثرًا بفلسفة أفلاطون في هذا الشأن. ولكنّه تجاوز تصور المدينة الفاضلة إلى تصوّر المعمورة الفاضلة أي المجتمع الإنساني الشامل، واعتبر نظام هذا المجتمع كنظام البدن التام السليم الصحيح، الذي يتعاون أعضاؤه كلّها على تتميم حياته وعلى حفظها عليه وعلى تقدمّه. ففي البدن القلب

وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس. وكلّ واحد منها جعلت فيه قوة ليفعل بها فِعْلَه ابتغاءً لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس، وأعضاء أخرى فيها قوى أخرى متمايزة ولكنها متفاوتة ومتضامنة. كذلك ترتيب المجتمع بحيث يكون الرئيس فيلسوفًا أو نبيًّا أو جملة من الفلاسفة والحكماء وبحيث يؤدي الإنسان في المجتمع الفاضل عمله أداءً تامًّا ويقوم فيه بما يحسن على غرار ما يجري في البدن من انسجام في وظائف أعضائه ونُسجُه. وفي كلام الفارابي بكتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» إرهاص بنشوء منظّمة الأمم في العصر الحاضر لو كانت تعمل كعمل القلب السليم في الجسم السليم.

العلم في الإسلام يقترن بالعمل، كما سلف. ومن عبقرية اللغة العربية أن كوّنت لفظي العلم والعمل من حروف واحدة لبيان اقترانهما، وأن أحدهما لا يتمّ إلاّ بالآخر. ولا شك أن كلاًّ منهما يؤثِّر في الآخر ويزيد في ثرائه. وقد ورد في التراث قولهم: «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه أقام وإلاّ ارتحل». وقولهم: «ثمرة العلوم العمل بالمعلوم». وقولهم: «شُكْرُ العلم العملُ به، وشكر العمل زيادة العلم». وفي هذا القول إشارة إلى أن العلم والعمل كلاهما نعمة.

ورُوِيَ عن علي بن أبي طالب ﷺ: «قيمة كل امرئ ما يُحْسِن». فالإحسان هنا بمعنى العمل المستند إلى العلم، والإتيان بالجديد المبتكر.

لا ريب أنّ العلم يستند إلى استعداد الفرد ونوع وراثته، أي إلى الفطرة التي فُطر الإنسان عليها والأهلية لتلقّي العلم التي زُوِّد بها. وقد فرّق علماء التراث عندما درسوا العقل بين نوعين: عقل مطبوع أي فطري، وعقل مسموع أي

مكتسب قائم على طلب العلم والتزوّد منه والثقافة الواسعة. وقال شاعر منهم:

رأيت العقل نوعين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وهكذا نتفهم كمال العالِم في الجمع بين الاستعداد والكسب، بين الوراثة والثقافة. وهذا ما يعيننا على التفريق مرّةً ثانية بين علو المكان وعلو المكانة. ذلك أن آراء أفلاطون وآراء الفارابي وأمثالهما كانت مثالية يمكن أن يُسْعى نحوها، ولكنها قلّ أن تتحقق في واقع الحياة المتعددة الصروف والأحوال والملابسات. فهناك صروف تدفع بعض الأشخاص لتبوُّؤ مناصب عالية قد يكون أهلاً لها. وعندئذ يتقدم المجتمع. وقد لا يكون حريًّا بها ولا قمينًا بمزاياها. فيدخل الخلل في إدارته وتصرُّفه. وقد انتبه المفكر السويسري المشهور يونغ حين فرّق في بحوثه التحليلية بين اللاشعور الفردي والأنا الواعي، ودعا الأنا الواعي «برسونا» أي قناع الشخص وهو يصل الأنا بالمحيط الخارجي، ويعرّفه بأنه اتفاقيّة بين الشخص والمجتمع من حيث مظهر الشخص فيه. وهو بالنسبة إلى المرء في بيئته كالبهو المقدَّم من البيت يصونه ويحميه، ويقيم له سُبُل الاتصال الممهدة المنتظمة بالمحيط الخارجي. وهو في الحال السويّة مرن، ولكنه يتصلب فيحجب عن الشخص طبيعته الأصيلة وينقلب قناعًا حقيقيًّا يفقد المرء وراء ذاته أصالته. يقول يونغ: «إن للاستغراق الشديد في الحرفة المزاولة أو اللقب المحمول نصيبًا من الإغراء.

ولذلك نجد كثيرًا من الناس ليسوا شيئًا أكثر من المنصب أو الرتبة التي حباهم إيّاها المجتمع. ولو فتّشنا عن شخصياتهم وراء ظاهرهم لم نجد شيئًا، أو لوجدنا أشباحًا جديرة بالرثاء. ولهذا كانت الحرفة أو ما ينوب عنها من الشارة الاجتماعية لها ذلك الإغراء».

هذا وإنّ العلم ليس مقصورًا على الرجال وحدهم. بل فريضة طلب العلم وفريضة نشره وإذاعته واقعتان على الرجل والمرأة جميعًا. «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» كما جاء في الحديث الشريف. وقد تألّقت نساء عالمات كالنجوم في سماء الحضارة الإسلامية. عدّ المؤرخ المشهور ابن عساكر بين أساتذته أربع عشرة عالمة أخذ عنهن.

حتى إن الأخبار الشعبية تعلن في بعض المواضع تَفَوَّقَ النساء العالمات على العلماء المشهورين، كما ورد في رواية «ألف ليلة وليلة» عن أخبار «تودّد» الجارية.

في نظر الإسلام النساء شقائق الرجال، أي مساويات لهم كأنما شقّوا من جبلّة واحدة. فالتساوي في الحقوق والواجبات المدنيَّة أمر واضح في تعاليم الإسلام. ومع ذلك فإننا نميل إلى استعمال كلمة «التتام» إلى جانب التساوي مستعيرين ذلك التعبير complementarity من مدرسة «بور» في فلسفة الفيزياء الحديثة، حين تكلّم على طبيعة الجُسَيْم والموج في المادة فهما متتامان. والإنسان أولى بالتتام من المادة.

هذا التتامّ مقرونًا بالتضامن والاحترام والرعاية يظهر في كلام الرسول العظيم ﷺ: «ما أكرم النساءَ إلا كريم ولا أهانهنّ إلا لئيم». وقد أوصى الرسول ﷺ بهنّ وشبههن بالقوارير إشارة إلى أنهنّ عطر النفوس لأن العطور

تُصان بالقوارير. بل إنّ المرأة في بعض المواقف تكون أعلى مكانة من الرجل بصفتها أمًّا. جاء في الحديث الشريف «الجنّة تحت أقدام الأمهات» ومعناه أن التواضع لهنّ و تَرَضِّيهنّ سبب لدخول الجنة. وقد جاء أيضًا في الحديث: «خياركم خياركم لنسائهم».

لقد كرّم الإسلام الإنسان أيَّ تكريم في جميع مراحل حياته. جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء: ٧٠].

كرّم الإنسانَ بالعقل والنطق والعلم والتمييز، والخطّ والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد، وبالحرّية وبتسليطه على ما في الأرض وتسخيره له، وأيضًا بتناول الطعام باليدين. فقد قيل: كلّ شيءٍ يأكل بفيه إلا ابن آدم!

ومع ذلك فقد دعم جوانب الضعف في هذه المراحل وأمر باحترامها والعناية بها. قال ﷺ حافزًا إلى إجلال الشيوخ والعناية بالأطفال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقّر كبيرنا».

ولما كانت الحياة الاجتماعية تتألف من أُسَرٍ هي الخلايا الأولى في تلك الحياة، أوصى الإسلام بالانسجام والتعاون بين أعضاء الأسرة، ونبَّه على بِرِّ الوالدين وقضاء حقوقهما، واعتبر ذلك من أعلى مكارم الأخلاق. جاء في القرآن الكريم: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[الإسراء: ٢٣، ٢٤] ننتبه في هذه الآية الكريمة إلى التعبير في خفض المرء وهو في تمام القوة جناح الذلّ لهما من الرحمة وهما في نهاية الضعف

والوهن. ونلاحظ أيضًا أن حرف الباء الملصق بالوالدين، مع أنّ الأصل هنا حرف الجر إلى، وذلك للحفز على تعهدهما الدائم والإحسان إليهما في ظلّهما وعدم البعد عنهما فإن حروف الجر تعطي الكلام المبلّغ قوّة كما تنبّه على مراتب الإحسان. حتى لو خرج الوالدان عن طاعة الله فإن القرآن يوصي بهما خيرًا دون التشبّه بهما، ودون طاعتهما في الإشراك والمعصية: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[لقمان:١٥].

يذكر الغزالي في «إحياء علوم الدين» أن الرسول ﷺ قال: «برُّ الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحجّ والعمرة والجهاد في سبيل الله». وفي حديث آخر أن الرسول يقول: «الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب».

واحترام المسنّين شيء راسخ في التراث. جاء في الحديث: «ما أكرم شابٌ شيخًا لسنّه إلاّ قيّض الله له من يكرمه عند سنّه» (رياض الصالحين ص ١٨٤ مصر مصطفى البابي ١٣٥٧هـ).

هذه ملامح خاطفة سعينا إلى عرضها لنؤكّد قيمة هذه التعاليم الإنسانية التي تقصد إلى تضامن المجتمع وتعاون أفراده وإسباغ الانسجام عليه والعمل على تقدّمه توكيدًا لما جاء في الآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]. المراد بالتقى هنا الابتعاد عن الأفعال الذميمة

والالتزام بمكارم الأخلاق وتحقيق القيم العليا من علم وتقدّم ورفق، والبعد عن كل ما يضرّ المجتمع وما يبعث العنف والإرهاب فيه.

إن الإسلام دين سلام ومحبّة ووئام وتضامن. وليس ذلك بين المسلمين وحدهم، بل بين جميع البشر، لا عنف فيه ولا تمييز بين العروق والألوان. لا وزن بميزانين ولا كيل بمكيالين.

لقد كان مَثَلُ الإسلام مَثَلَ كل حضارة مثالية عالية، كالنهر المتدفّق بماء عذب زلال فأحيا الأرض والناس جميعًا، ودفعهم إلى البناء والتعاون وابتغاء المعالي، ونشر الحرية والتساوي بين الشعوب، وبين الرجال والنساء وبين الصغار والكبار. ولكن النهر المتدفّق لا بدّ في سيرورته من أن تشوبه الشوائب ويمرّ على مختلف الأراضي ومتفاوت التربة.

وبذلك تدخل إليه نوازع الناس ومنافعهم، وتخالطه أَتَرَتُهم وعماء أبصارهم. وهكذا قد تنقلب الأمور إلى أضدادها وتحتجب الأنوار الهادية زيادة على ما يمكن أن يُرْمَى ذلك النهر بأوصاف لم تكن في أصوله. وهذا شيء قائم في تطور الشؤون الإنسانية التي تتنازعها غوائل الشرور وعوادي الجهل ومشكلات البؤس والخيبة. حتى إن التصورات العلمية في تاريخ العلم تكشف عن تناقضات في تطور دلالاتها. لقد كان علماء الفيزياء مثلاً يتصورون الذّرة في نهاية القرن التاسع عشر وأوّل القرن العشرين كالكرة المصمتة لا فراغ فيها وليست قابلة للتجزئة، كما يدلّ عليها لفظ «أتوم» (الذرّة). ولكن ذلك التصور انقلب إلى تصور مقابل وهو إمكان انقسام الذرّة وأنها مؤلفة من أجزاء بينها فراغات.

وإذا كان العلم الموضوعي تنقلب تصوراته من حالة إلى حالة مخالفة ومقابلة، وتكاد تكون مضادّة، فلا غرو أن نجد أن التعاليم الحضارية الإنسانية المشتبكة العناصر، والتي يصعب تحديد مجالاتها بدقة، يصيبها تغيّر وتطور وانحراف. وذلك بسبب الآفات الاجتماعية كالحروب والفقر والجهل والمرض والتعصب والعنف والإرهاب والإذلال. وعندئذ ينتشر الظلام ويشتدّ العدوان وتسيطر المادّة، وتكاد تعود شريعة الغاب بين الأفراد في المجتمع الواحد، وبين المجتمعات أنفسها. وهذا كله يبتعد عن روح الديانات السماوية التي جاءت لتهدي البشر ولتضمن تعاونهم وتقدُّمهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وفي الختام نذكر الحديث الشريف: «الخلق كلّهم عيال الله فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله». أخذه أبو العتاهية فقال:

الخلق كلهم عيا ل الله تحت ظلالِهِ
فأحبهم طرًّا إلي ه أبرُّهم لعيالِهِ